الموازنة

بين الالعوبة الالهية ورسالة الغفران

— او —

بين ابي العلاء المعري ودانتي شاعر الطليان

= ٥ =

اولاً : ان كل من تقدم دانتي من كتاب الفرنجة وشعرائهـا لم يرو عن احد من اولئك الابرار الذين نسبوا اليهم العروج الى السماء اوالهبوط الى جهنم ، انه نفسه عرج وهبط ، وهذا أقدمهم بولس الرسول يحكي عن السماء فقط ، ثم بعده يوحنا لا يتكلم عن سواها ، واما مَن بعدهما ، فاما ان يحكي عن عروجه على السماء كالقديس سانور والقديس بَارْبَتَو والقديسة كاترينـا وغيرهم ، او عن المطهر كالقديس باثريس ، او عن جهنم فقط كما رووا عن سواه ، ولم ينفرد عن كل هذه الجماعة الا راهب واحد يدعى البيريك ، ولدى تقصينا البحث عن موقع دير هذا الراهب علمنا انه مدينة كاستينو بابطاليا ووجدنا فيها دار كتب تحوي اربعين الف كتاب بينها خمسمائة كتاب مخطوط من اندر الكتب ومنها نسخة خطية من الالعوبة الالهية ، وفي هذه الدار صورة دانتي الاصلية .

فقد يكون الراهب البيريك — وكانت الرهبان في القرون المتوسطة خزنة العلوم وسدنة المنثور والمنظوم — او دانتي نفسه ، او كلاهما ، طالع رسالة الغفران العربيـة او المترجمة ، بين تلك الكتب المخطوطة النادرة وهو ما لا يشك فيه الناقد .

ثانياً : ان جميع العارجين والهابطين قد احتذى متأخرهم على مثال المتقدم فكان مجمل كلامهم عن الفردوس لا يتعدى ماعاينوه في زعمهم من الاعاجيب ووصف لذات الارواح في ذلك النعيم ، وتفصيل أنواع التعذيب وضروب الآلام التي يجزى بها الاشرار في الجحيم ، على اختلاف في اللفظ وطرق الوصف والتعبير ، واتفاق في وحدة الصورة وان اختلفت ألوان التصوير ، إذن دانتي لم يذهب الى محاكاة هؤلاء .

(١) تتمة مانشر في الجزء الحادي عشر من المجلد السابع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثالثاً : ان هوميروس اشعر شعراء اليونان ، وفيرجيل اشعر الرومان قد سلكا في أشعارهما على نقل الحوادث التاريخية وروايتها ولم نعثر على كثرة ما بين ايدينا من كتب الفرنجة وغيرهم على الطريقة التي جرى عليها المعري في رفع مخاطبه الى الفردوس العلوي ، واراءته من اعاليه مشهداً من الجحيم ، وتنقيله صاحبه (وهو ابن القارح نفسه) في عرصات الجنان ، ومكالمته من بها من الانس والجان ، والقائه على قدماء الشعراء وغيرهم من الجن أسئلة أجاب عنها بلسانهم مفصحاً عن رأيه ومذهبه ، الى أغراض كثيرة في طي ذلك .

وكأن دانتي لشد ما أعجبته ، ولم يكن لديه صديق كابن القارح يثق به ، رأى ان يكون هو نفسه ابن قارح عصره ، وهو الاشبه بما يزويه ، ولكن لما لم ير ابا علائنا ولا هو ممن يلائمه اختار فيرجيل دليلاً وهادياً في تلك الهاويات المظلمات ، والهبطات العاتمات وكأني به اخذ كلام ابي العلاء على ظاهره ففهم ذلك العروج عروج تقوى وخشوع وانى له ان يتبطن ما وراء ظاهر اللفظ من المغامز ، وهو ليس بعربي ، او ان يجسر المترجم الى نقد ما هنالك او الاشارة اليه — ان كان قد زكن شيئاً منه — وهو في بجبوحة القرون المظلمة وظل محاكم التفتيش .

وقد ذكرنا قبيل هذا ان دانتي كان صلباً في دينه ، شديداً في مذهبه ويقينه ، فلم يكن ليدور في خلده شك في جل ماقرأه او وصل اليه من أساطير الاولين بل من الخرافات التي كان يتناقلها معاصروه عن معجزات ينكرها اليوم عقلاء المتدينين ، وكان نقد شيء من ذلك بعيداً عنه بعد الارض من الجوزاء ، وان اقصى ماأوحاه اليه خاطره عند نظمه شمل الالعوبة « ان ينتزع الاحياء من تعاستهم في هذه الدنيا ويقودهم الى السعادة الخالدة كما روى هو نفسه » ولكنه وان كان صافي السريرة بهذه الدعوى ، فقد كان يطمح ببصره الى المجد وان جعل غرضه العلويات ، وفي نفسه من الحقد والعداوة وغيرهما من خسائس الارضيات ، ما اتخذ لها الهبوط والعروج اسباباً ، ومهد للولوج فيها طرقاً وفتح ابوابا ، فطرح في جهنم من شاء من اعاديه وخصومه ثم من خالفه في مذهبه السياسي وآرائه في الدين ، وجعل اسم فيرجيل عوذة له يدفع بها اعتراض المعارضين في طريقته الشعرية باللغة الطليانية بدل الرومانية ليوهم العامة من القراء انه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان يوحى اليه بشعره هذا من فيرجيل فيعظم اسمه وتذيع شهرته بتكراره يا أبت وجواب فيرجيل يابنيّ ، وقد صرح في الاغنية الرابعة بعدّ نفسه سادس شعراء الدنيا ومن ذلك ترى ان ليس « انتزاع الاحياء من تعاستهم الخ » هو وحده غرضه من العوبته ومعراجه المزعوم بل للفخر ومباهاة شعراء عصره فيها قسط كبير ، ولعله قد تنبأ عن نفسه اصدق النبوة بهذه الدعوة فقط ، فان اكثر ارباب العلم في اوربا قد أجمعوا على انه ثالث شعرائهم كما ذكرنا قبل هذا ، ولعل ذلك كان في القرن الثامن عشر .

على انه لو لم يكن الى تلك الشهرة طموحه ، ولهذا العز الاقعس جنوحه ، ألم يكن الأجدر به ان يطلب من معشوقته بياتريس (وتعبر بها الغبطة) او كما دعاها في بعض شعره (الغبطة الالهية) ان تبعث اليه بملكٍ من الفردوس يكون دليله في تلك الظلمات الحالكات ، او بسادن من سدّنة جهنم عارفٍ بمن فيها ، من اتخاذه فيرجيل دليلاً وهادياً ، ولعله كان يريح القارئ من تكرار لفظ انا لابي ، وابي لي ، يريد قلت لابي واجابني ابي ، مرات عديدة في كل صفحة من الالعوبة ، وان قيل انه اراد بهذا التكرار ايضاح استعانته بروح فيرجيل ليوحي اليه ما نظمه وهو أعظم شعراء الرومان كما هو معلوم ، فنجيب عن ذلك انه كان يرجو منه ان يوحي اليه بعلم العروض والقوافي . فالشعر وجد عند الرومان قبل فيرجيل وهو يعلم ذلك ولم يكن فيرجيل واضع هذا العلم وان كان يريد ان فيرجيل كان يوحي اليه اللفظ والتركيب ، فهو ينظم بغير لغة فيرجيل بل لو علم بها لانكرها عليه كما انكرها عليه بعض مشاهير معاصريه ، وان كان يريد بفيرجيل نمو المعاني ، فليس في الهبوط الى جهنم ومشاهدة ما ذكره كبير معنى ، وقد ألهب دماغه وأتعب قراءه وأسأم نقاديه وفيهم كاتب هذه الموازنة ، بما ابتدعه في جحيمه من التلال ، والاودية والجبال ، والحصون والاسوار ، والبحيرات والانهار ، والمهاوي والفلوات ، والمضايق والاعوجاجات ، والمخابئ والدهاليز والجسور ، والمنافذ والسوابط والقبور ، واناس بثلاثة ارؤس على كل كتف رأس ، واناس بثلاثة افواه وكل فم كفم التمساح ، وظلمات مدلهمّات لم يحلم بها حالم ولا يدركها اشد العميان عمىً ، وكان في زعمه يتهاوى فيها تارة ، وطوراً يسير بطيئاً ، وحيناً يقف

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يحدث من يريد في النار من اهل النار . وهم يتضرمون ويتوجعون ، ويدورون دورة الرحى بسرعة البرق تنهشهم الافاعي وتلدعهم الحرور الجهنمية او هم يتخبطون على جبال من نار ، او يسبحون في بحار من الماء المدلهمّ ، او هو بخار النار ولكنها مياه سوداء قاتمة ذات ريح لاتحكيها في فسادها ريح من رياح الارض . ومنهم من كانت تقذف بهم تلك الأمواج الجهنمية على الدوام بين هبوط وصعود وهم أرواح لاتُنظر ولا تُلمس كالهواء ، ومع ذلك فانه كان يشاهد كل حركة من حركاتهم ويعاين جميع ملامحهم حتى أظافرهم والقروح التي كانت منتشرة فوق أجسادهم ووجوههم الهوائية ، وحكّهم باظافرهم النارية تلك القروح الى كثير من أمثال هذا الوصف الذي تقشعرّ منه الجلود ولم يستك مثله في المسامع . ثم يحكي ركوبه مع ابيه فيرجيل متن فلك اسود في بحيرة ماؤها اسود في دركات مدلهمّات وظلمات غامضات ، ويصف ميل الفُلك لثقل جسمه المادي وخفة فيرجيل وهو روح . ثم يتنطّس بذكر الخطوط المستقيمة والمنحرفة والزوايا والحنايا والاشكال البيضوية والمحدودبة والمنقوسة ونصف الزاوية والمربعات والمثلثات ودائرة البروج كأنما هو يملي على تلامذة مدرسةٍ كل ما وعاه من أقوال طاليس وفيثاغورس واقليدس ، ولم تفت بصره الألوان المختلفة التي كان يراها في جهنم في تلك المهاوي والمنحدرات تحت اقصى اسافل الطبقات في معترك عمى تلك الظلمات .

كل ذلك وهو هو بلحمه وعظامه وروحه ومادته وثيابه لم يصب باذى النار وهو يتخطر و يتنقل في ذلك الاخدود الجهنمي و يتنسم تلك الأرياح وذلك الأوار ، متضادات متناقضات ، بل هو خلط منظوم او هذيان محموم .

رابعاً : ان اكثر تشبيهاته وتصويراته فقيرة محدودة لا تبعد كثيراً عن فيورنسا مسقط رأسه ، او ماحولها من القرى التي لا تعرف اسماؤها اليوم الا من العوبته ، او عن رافين وهي المدينة التي قضى بها آخر حياته وان جازت هذه النواحي فالى رومة وهي مقر العرش البابوي ، وأغلب محادثاته مع اهل النار تدور حول حوادث ايامه السياسية في تلك الناحية الصغيرة من ايطاليا ولعلها أصبحت اليوم مما يبحث عنها المؤرخ الراغب في التنقير عن الاحداث المحلية في هاتين المدينتين او مايليهما في المعاجم ، وانما ذكره ذلك كله في تلك الملحمة الطويلة وقد استحضر لمساعدته فيها روح فيرجيل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أشعر شعراء الرومان ، وخلطه فيهـا كثيراً من آلهة اليونان وابطالهم ، كان على نحو قولهم تمخض الجبل فولد فأرة ، فتراه اذا صوّر مضيقاً من مضائق جهنم اومعبراً اوجبلاً او غير ذلك ورام تشبيهه بشيء من نوعه على وجه الارض لا يذكر في الاكثر الا ما كان في بلدته او نواحيها ، كما تفعل العجوز التي تروّم تلهية الاطفال بحكايات تقرّب بهـا الى فهمهم ما ترويه فتقول « كان بيت السلطان في رأس الحارة وكان له بستان اكبر من جنينتي ولعل جنينتها لا تزيد على بعض أذرع » .

وهذا يدلك على ان غرض دانتي في كل بيت من أبيات العوبته كان الانتقام من خصومه في بلدته ونواحيها ، وكان جل قصده ان يقف اولئك الاعداء على ما يقول ، و يردد أصحابه ومن يقول بقوله اللعن على من لعنه ، وان يقال ان هذا الا وحيٌ يوحى وانه اخذ كل فصاحة فيرجيل وحكمته ، وعلى الجملة لينتصروا لرأيه ، فقد كان ملئاً انانيةً ، كثير التطلع الى المجد وهذا لا ينفي ماثبت من تحمسه في دينه .

خامساً : انه جعل جهنم في أسفل الطبقـات الأرضية حسبما كان يذهب عامة اهل عصره ، وان المطهر اعلى منها طبقات ، وان فردوسه فوق أرفع الجبال فلم يرتفع عن مستهم برأي سميّ او مذهب عليّ لاسيما وانه شـاعر ، ثم قسم جهنم الى طبقات بحسب الآثام وهي عنده سبعة او هي رؤس الخطايا ولا نطيل بهذا ، ولكن لا بد لنا من توثيق مدعانا عليه التشبه بانبياء اليهود وانزاله نفسه منزلتهم ببينة لا تدحض وذلك من أغنيته التاسعة في الفردوس اذ يصوّر نفسه في محادثة مع الله وان روح الله حلت بجملته وامتزجت بذاته فتنبأ عن طوفان دم يحدث ببلدة پادو لعصيان اهلها واستنزل النقمة باسقفها الجاحد (في زعمه) وانها ستبكي طويلاً جنايتها الفظيعة الخ الخ . وكل ذلك لان هذا الاسقف لم يكن من حزبه او حزب جماعتـه وانه اخبر عنهم او وشى بهم فهلكوا .

سادساً : لم يسبق لاحد ممن عرجوا في زعمهم على جهنم او على السماء ، ان رأى احداً من اصحابه او اعاديه او انه خاطبهم وخاطبوه وعاتبهم وعاتبوه الا ما صوّره لنـا المعري في تمنياته لابن القارح ثم مشى على آثاره دانتي في العوبته فاحتذى عين مثاله ونسج على منواله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

على ان دانتي وان كان قد تصرف في بعض المسروق تصرفاً بعيداً وفي بعضه الآخر لم يزد على التقديم والتأخير وابدال الاسماء فان الناقد المنصف يعترف معنا بصراحة السرقة اذ كل ما خلطه في أُلعوبته من الاشارات الى علوم الهيأة والهندسة والتاريخ واللاهوت وآيات من التوراة والانجيل والمعتقدات وأساطير اليونان والعادات القومية والامثال العامية والاحزاب السياسية المحلية والضغائن القومية وغير ذلك مما تعرّض له — في غير محله كما سنبينه بعد هذا — لم يكن ليستر سرقته هذه عن أعين الناقد البصير ولله درُّ شاعرنا :

(ثوب الرياء يشف عما تحته فاذا التحفت به فانك عارِ)

فاول ما فعل انه نزل الى جهنم اولاً ثم طلع الى المطهر ثم منه الى السماء ، وانت تعلم ان ابا العلاء طاف بابن القارح على الفردوس اولاً ثم على جنة العفاريت ثم المطهر ثم جهنم كما مر بك .

ثم ان ابن القارح وقف في باب الجنة يستأذن رضوان في الدخول فطلب منه جوازاً ولما لم يكن بيده جواز رشاه بقصيدة لم تفعل شيئاً في نفس رضوان .. ثم وقف عند الصراط واستشفع بالزهراء فأمرت احدى جواريها باجازته كما مرت بك القصة .

« للبحث صلة »

عضو المجمع العلمي العربي

قسطاكي الحمصي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net